أمين صالح

قنديل العرافات

جذع امرأة.

من حَلْمَة الثدي تنسل يمامة تضلّل الرياح بمراوغاتها الرشيقة وتُسَوّر مقصورات النهار بابتهالات مترعة بأنين خافت لا يسمعه غير الصياد الشره الذي يكمُن خلف دغل مُرْسِلا نظراته إلى أعلى، يرصُد ظلاً مُحَلِّقا (لا يبتغي الظل بل يشتهي البدن) ويصيخ لرفيف يصطخب في الرأس فحسب.

فَخاخ تطوّق الضفة، تُواري ذؤابتها تحت أجَمات، متأهبة للانقضاض.. وحين تيأس ترحل، زاحفة، تجاه مَكْمَن آخر في الحقل أو قرب مخزن للقش. واليمامة تحتمي بدهاليز السماء وتركُض من دَرب الى دَرب، وآن تحدق إلى أسفل ترى مجزرة، فتستل من جناحها أقحوانة وترميها.

إنها الأرض تَذْرِف مجزرة لأنفاسها رائحة طين مطعون بالدم. لماذا ساحات الفقراء لا تتزين سوى بجثث أبنائها ؟ وحدها يغتالها النصل بغتة. عند الْعَتَبَةِ نوتيٌ مشروخ الرأس بمجداف. بخار يتصاعد مثخناً بالعويل ويوشك أن يعتصم بغيمةٍ لكنها تَفِرّ مذعورة إذ للبخار هيئة عنكبوت هائل أو هو تابوت ورثته الخرائب من الخرائب، وتتعرّف اليمامة على ذلك السائس الهزيل الذي كانت تلتقط من راحته القش، إنه الآن مشنوق بِحُذْوة.. يالليائس، كان رحيماً كالرغيف، وها هو يتدلى مهجوراً حتى من رفيق يرشُق موته بالصلوات والهذيان. بعيداً يتناثر الأطفال أكواماً فرائس الطعنات الأولى في الاقتحام الأول، والأقحوانة سترت عري المرأة المسنّة بعد انحسار الثوب عن الركبة.

اليمامة تفرط في الأسى وتجدّل جذور الغيمة جذراً جذراً لتحتشد في ردهاتها فلولُ المطر. آن للمطر أن يحتل مواقع المجزرة ويطهّرها من الدم والجثث. وتربط الأفق بالأفق حتى لا يكون هناك إلا فضاء لا يُحَد، فيه تتعرى المكائد.

ذلك الصياد الصبور ما يزال يتربّص بين الشجيرات، يَقْنِص الفضاء بأحداقه ويُدغدغ ماسورة البندقية لئلا تغفو، ويتواثب من ضَفة إلى ضَفة ومن بيت إلى بيت ملتمساً حضور

اليمامة الشهية، وعندما يستند على حائطٍ رطبٍ يرفع قِرْبَتَهُ ويشرب، ثم يتفحص المكان بنظراته المليئة بالقنص.

اليمامة تهبط لتستقر على سقف قرميدي وترنو الى زوجة فلاح تحمل بيدها دلواً فارغاً وفوق رأسها سَلة مكتظة بالبيض، خارجة من الحظيرة ومتجهة صوب الدار. في الجانب الآخر يجلس الفلاح فوق مِصْطَبة متكئاً على فأسه ويحدّق في التربة مهموماً. يدنو منه شاب بخُطى متثاقلة واضعاً يديه في جيبه وحين يجاوره يرفع رأسه نحوه ويحدثه. الفلاح لا ينتزع بصره عن التربة كأنه لا يسمع. بعد وقت ينهض منتفضاً ويمضي على عجل مؤرجحاً الفأس بيده القوية بينما الشاب يرمُقه في إشفاق ثم يَنْكُس رأسه ويثقُبُ الأرض بحذائه. يعود الفلاح ممتطيا بغله ويتوقف بالقرب منه ويخاطبه بِحَنَقٍ للحظة ثم يلكُز البغل ليواصل سيره، الشاب يتبعه مهرولًا ويخاطبه محاولًا أن يثنيه عن عزمه ولأن البغل تزداد سرعته فإنه يُضْطَر إلى الجري وراءهما. تحلّق اليمامة لتعرف أي جهة يقصدان. في الحقل جرارة تشوّه التربة وتجرف المحاصيل. يترجّل الفلاح ويهرع نحو الجرارة ملوحا بفأسه. السائق يوقف المحرّك لكنه لا ينزل بل يمكث محتمياً بالآلة. يحتدم الجدل بينهما، وشيئاً فشيئاً يخبو الصراخ مع ابتعاد اليمامة التي تمضي إلى جهة أخرى. الصياد يتثاءب ويتحسس خديه. يعجب لأن الشعيرات صارت تنمو بسرعة في الأيام الأخيرة، وبالتحديد منذ أن شرع بالمطاردة. يفتح حقيبته الجلدية ويُخرج المعجون والفرشاة والمرآة وآلة الحلاقة. البندقية المتكئة على الحائط تخلُد للراحة، لو تسنى لها أن تتسلل هاربة لفعلت، فجميع رصاصاتها التي أطلقت طاشت بلا روية وهذا السيد الأرعن لا يُتْقِن غير انتقاء المخابيء والتواري خلفها. لكن، في ساعات الغسق، حين يزيح الجسدُ رداءه الشفيق عن الروح، يتناهى نشيج موجع وتعرف كم هو تعيس هذا الرجل، وإلى أي مدى مشروخة روحه. أما الآن فيَصفّر مغتبطاً بينما يلملم حوائجه وينتصب متطلعاً إلى الجهات المتقاطعة أمامه ثم يتناول بندقيته ويبدأ في التواثب من جديد.

اليمامة تسرَح في المدى، ترافق قطيعاً من الجواميس المدججة بالأجراس وهي تجر الآبار إلى وادٍ غير ذي زرع، وحيناً تهدي وروارأتائها إلى عشه. وتنزل في جرن توقظ صبياً وصبيةً يختطفان حقائبهما ويجريان صوب المدرسة المجاورة. تتبعهما اليمامة وعلى عَتَبة النافذة تقف وتراقب المدرّس الذي يتباهى بسوط شَفْرات ابتكره البارحة، يستدعي تلميذا ويعري مؤخرته ثم يجلده بشراسة. يشد آخر من شعره ويلكُمه على صُدْغه وفمه. ويوثق قدمي ويدي تلميذ آخر خلف ظهره بحبل ويعلقه في المروحة بعد ذلك يؤرجحه ويَجْلِده. يولج بعنفٍ مقبضَ السوط في إسْت تلميذ... وعندما يُنْهِكه التأديب يفتح الكتاب ويرجو منهم الهدوء ليبدأ في الشرح. تغادر اليمامة مبتعدة.

الصياد يَدْخُل غابة مترفة بالأشجار والينابيع ويجرَح عوطتها بالفخاخ فتعدو الظباء متشحة بالفزع تحيك بأظلافها مركبات تطفو بعيدا عن الدسائس ، والصياد يظل ينصب فخا هنا وفخا هناك ، تتبعه السحالي التي تخرب بابتهاج ما يفعله . بعدئذ ينحني جانبا ويُحصي ما ادخره من رصاص ، ولكي يراقب بشكل أفضل فإنه يتسلق شجرة دردار ويمكُث بين الأغصان مختبأ ، آنذاك يخطرُ له أن يفاجيء اليمامة في دارها فيجمع أشراكه ويصعَد درجات الهواء ناثرا كمائنه في الفضاء هنا وهناك وعندما يسمع عواء خافتا ينزل بهمة ويقفز على الأعشاب ثم يركُض نحو مصدر الصوت ليرى ثعلبا يرتجف في احتضاره بينما الفخ يَهْرُسُ رقبته ويَخْنُق عواءه حتى يخمُد. ينحني الصياد ويخلصه ثم يرفعه من ذيله ويطوحه بعيدا.

يمامة تمرَغ منقارها في أمواج الهواء وتهب زَغَبها لأرجوحة في منتزه . يد شاب تحتضن يد شابة ، يفرك جبينه في كفها كأنه يوسم جسده بجسدها . يسيران محتويين الأعمدة والأرائك في مُقْلتيهما ، يهمس في أذنها : أحبك . فتَغْمض بصرها في خَفَر . يبتعدان قليلا لكنهما يتوقفان فجأة هلعين من موكب محتقن يتقدم نحوهما . يتقهقران ملتفين حواليهما بحثاً عن طوق نجاة ، غير أن الجمع يطوقهما في دائرة تضيق وتضيق ولا تسمح سوى باستغاثة ضعيفة يحاصرها هتاف هادر . تجثو اليمامة عند مقعد حجري يجلس فوقه كهل ينثُر فُتات الخبز أمامه ليغوي البلابل كي تجيء وتتخاطب معه . عبثا أيها الكهل ، لقد نزحت مع لغات العشاق منذ أن طوت الحدائق جداولها وذهبت من غير رجعة . تَمَعَّنْ في مرآة ذاكرتك لتبصر صور أحبائك الذين غادروك دون أن يتركوا عنوانا.

المطاردة تُنْهِك الخصمين . يعرفان أنهما لابد أن يلتقيا كي يحسِما الأمر . هكذا قررت اليمامة أن تواجه عدوها ، هكذا قرر الصياد أن يضع حدا للاستنزاف والتقيا دونما مباغتة أو مكر .

اليمامة تنقُر الماء ، ربما هي القطرات الأخيرة، ثم تستدير لتتفرس في الصياد مرتقبة في هدوء . الصياد يحشو بندقيته برصاصة لن تطيش هذه المرة . ينظر برهة قبل أن يصوب البندقية . الفُوَّهَةُ مُسَدَّدة نحو القلب مباشرة ويكفي أن يضغَط على الزناد لينتهي كل شيء . المسألة سهلة جدا وقد فعلها أكثر من مرة . لكن ما باله في هذه المرة يتردد وأصابعه ترتعش ؟ لو أنها تُغْمض عينيها ؟ لو أنها تستدير . واليمامة لا ترضَخ لتوسلاته بل تُمْعِنُ في إرباكه بنظراتها الحادة الجسورة . وأخيرا يخفِض بندقيته ويستدير ببطء عائدا إلى المدينة . لقد لمحت اليمامة في عينيه حزنا طاغيا .